سيعلّق بها. ولم أطلب لقاء هديتي إلاّ السماح لي ببناء ضريح صغير لي تحت قدمي الصليب لتثوي فيه عظامي. فأجاب الأخوة الرهبان انهم لا يستطيعون الموافقة دون قرار من مجلس الإدارة. فقلت لهم:

- إذن لماذا لم تطلبوا أيها الأخوة موافقة المجلس على السماح لي بنصب الصليب بعد أن سمحتم لي بدقّ المسامير وغير ذلك دون إجازة منهم؟

على إثر ذلك قررت ألاّ أهدي (سانتا ماريا نوڤللاّ) ثمرة جهودي الفنية. وبقيت مصراً على هذا رغم ان اعضاء المجلس جاؤوا اليّ ورجوني بأن اعيده اليها. على اني راجعت المسوولين عن كاتدرائية (انونزيانا) وافضيت للأخوة الرهبان المطهّرين بما في نفسي من أمنية مثلما فعلت في في (سانتا ماريا نوڤللاّ). فوافقوا بالإجماع قائلين من المؤكد أنهم يريدوني أن أهديه لكنيستهم ولا مانع عندهم من بناء ضريحي فيها بأى شكل أردته مناسباً. ولما سمع (باندنللو) بهذا بدأ يشتغل بكلّ دأب وجدٍّ لإنجاز تمثال العذراء (الپيتا) وطلب من الدوقة أن تتوسط للحصول له على بقعة في كنيسة (پازّي Pazzi)[١١٥]. فتمّ له ذلك بشيء من الصعوبة. وما أن تأكد من ذلك حتى أقام تمثاله بغاية من الإستعجال، لكنه توفي قبل الفراغ منه. فقالت الدوقة إنها إلتزمت (باندنللو) في حياته وستلتزمه أيضاً وهو ميت. وبخصوص الرخامة قالت:

- إني وإن اصبح في عالم الأموات، سأطرد كل فكرة تساورني لنفض يدي من أمر الرخامة.

وعلمت ذات يوم من السمسار (برناردو) لذي لقيته صدفة في الريف ان الدوقة قد أعطت (آمّاناتي) الرخامة. فقلت:

- ما كان أسوأ حظها العاثر لو وقعت في يد (باندنللو) على أن مصيرها سيكون أسوأ بمائة ضعف وهي في يد (آمّاناتي).

كان الدوق قد كلفني بعمل نموذج بإرتفاع الرخامة وأوصى بأن أزود بالخشب والصلصال اللازمين. فضلاً عن إقامة قاطع صغير في اللوجيا الكبير حيث إنتصب (پرسيوس) مع دفع أجور عامل واحد. فباشرت العمل بحماسة باذلاً قصارى جهدي وأقمت متبعاً الأصول المعتمدة- هيكلاً خشبياً وقطعت أشواطاً في فترة وجيزة حتى أشرفت به على النهاية غير ملقٍ بالاً على ما إذا كنت سأتولى نحته من الرخام أو أصبّه بالبرونز. أبيت أن أشغل فكري بهذا وكنت في الواقع مسروراً لإضطلاعي بمثل هذا العمل المرهق معللاً نفسي بأن الدوقة وهي المرأة الذكية الأريبة كما تبين لي فيما بعد- ستأسف بعد أن ترى النموذج- على إرتكابها هذا الخطأ الفاحش بحق نفسها وبحقّ الرخامة.

وعمل (جيوڤاني) الفلمنكي[١١٦] نموذجاً آخر في دير سانتا كروچي Santa Croce[١١٧] كما عمل

(١١٥) سانتا ماريا مادلينا دي پازّي. إحدى الكنائس الأثرية التي تعود الى القرن الرابع عشر.

(١١٦) ويدعي جان پولونيا. نسبة الى المدينة التي يرى فيها تمثاله الرائع لـ(نبتون) الآن وهو لعين النموذج الذي عمله في فلورنسا فرفض على الأرجح. ويعد من أشهر الآثار في إيطاليا.

(١١٧) كنيسة الأخوة الرهبان الفرنشسكان جددت في (١٢٩٥) كما ترى الان. ويقع الى جوارها دير الرهبان وهو الذي يقصده چلليني هنا.

(فنچنزيو دانتي Vencenzio Danti) البيروچي نموذجاً ثالثاً في منزل النبيل (اوتاڤيو دي مديتشي Ottavio de Médici) وباشر ابن (موسكينو Moschino) البيزي برابع. وصنع الخامس (بارتولومو آمّاناتي) في بهو اللوجيا الذي قسّم بيننا. وكنت قد أقمت لنموذجي حاجزاً محكماً. وهممت بالجزء الختامي من الرأس، فصورت ملامحه التقريبية ولم أكد إذ أقبل الدوق من القصر بصحبة الرسّام جيورجيّو[١١٨] قاصداً محل عمل (آمّاناتي) للإطلاع على نموذج (نبتون) الذي كان (ڤاساري) نفسه قد شارك آمّاناتي في العمل به مع كلّ مساعديه أياماً غير قليلة. وقد نُقل لي أن الدوق لم تبد عليه علائم الرضى أثناء تفقده. ولم يقع من نفسه موقع قبول. فهمّ (جيورجيو) بإلقاء خطبة طنّانة إلاّ الدوق هزّ رأسه وقال موجهاً كلامه الى (جيانستفانو Giastefano):

– إذهب وسَلْ (بنڤنوتو) هل بلغ عملاقه مرحلة يمكن معها إلقاء نظرة عليه؟

أبلغني (جيانستفانو) برسالة الدوق بلطف وإحترام واضاف انه لن يتردد في مصارحة الدوق إن لم يكن النموذج قد بلغ المرحلة التي تمكن الدوق من تأمله، لأن سموّه مدرك تماماً الظروف العصيبة التي إجتازها جراء إفتقاري الى المعاونين. قلت: سأكون ممتناً لو تفضل عليّ بالمجيء، ومع اني لم أتقدم في عملي كثيراً لكني أركن الى نفاذ بصيرة سموه المتناهية القادرة على الحكم بدقة عما سيكونه نموذجي عند فراغي منه.

فنقل السيد الماجد كلامي للدوق فأقبل متلهفاً، وما ان إحتوته دكاني حتى شخص بأبصاره الى النموذج متفرساً متمعّناً فيه بشكل إستشففت منه الإرتياح والسرور. ثم أخذ يدور حوله متوقفاً بين آن وآخر مدققاً إياه من جهاته الأربع تدقيق الخبير العليم بأسرار الصنعة. ثم أظهر مايدلّ على رضاه التام. ولم ينطق بأكثر من هذا القول:

– بنڤنوتو! ما عليك الان إلاّ أن تضع عليه كسوته الأخيرة.

ثم إلتفت الى مرافقيه وأنشأ يمتدح عملي بإفراط. وانهى ذلك بقوله:

– النموذج الصغير الذي رأيته في منزله كان في نظري في غاية الإبداع إلاّ أن هذا فاقه.

شاءت إرادة الله– وهو المدبّر لسائر الكائنات والأمور لخيرنا (أقصد أولئك الذين يؤمنون به وينحنون لجبروته، فهو يدفع عنهم البلوى والضرّ دائماً) أقول شاءت إرداة الله ان يعترض سبيل حياتي وغدٌ حقير من أهل (ڤيكيو Vicchio)[١١٩] إسمه (پييرماريا دانترگولي Piermaria d'Antergoli) ويلقّب بـ(سبييتا Sbietta). وهو فلاح غنّام من أقرباء الطبيب (گويدو گويدي) الذي هو الآن رئيس بلدية (پسچيا Pescia)[١٢٠]. جاءني هذا بإقتراح: عرض أن يبيع مني منافع واحدٍ من حقوله للمدة التي

(١١٨) هو جيورجيو ڤاساري Giorgio Vasari (١٥١١–١٥٧٤) المولود في أريزو، رسام ومهندس شهير من مدرسة الرينسانس. وقد نوهنا بكتابه الجليل الشهير في سير الفنانين الذي سبق ان ذكره چلليني في موضع سابق من مذكراته.

(١١٩) بليدة تبعد زهاء خمسة وعشرين كيلومتراً الى الشمال الشرقي من فلورنسا.

(١٢٠) بليدة تبعد زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً الى الشمال الغربي من فلورنسا.

بقيت لي في هذه الدنيا. لم أشأ تفقد الحقل قبل عقد الصفقة لإنصرافي الى إكمال نموذج (نبتون) العملاق، كما إني لم أر ضرورة لذلك مادام هذا البيع هو مجرد إستغلال منفعة. فقام بحساب الغلّة التي ستصيبني بمقدار كذا من بوشلات القمح، وكذا من الخمر، وكذا من الزيت والذرة والكستناء الخ... الخ... فقدرت أن كلّ هذا المحصول يسوى في يومنا ذاك مبلغ مائة كراون ذهبي. دفعت له ستمائة وخمسين كراوناً وهو الثمن المتفق عليه بضمنه الضرائب، ووضع في يدي صكّ ضمان بخط يده فيه تعهد أن يدفع لي تلك الكميات من الغلال طوال حياتي. ولذلك لم أهتم بأمر الذهاب الى المزرعة وإلقاء نظرة عليها، ومهما يكن فالأمر لدي سواء مادام الوضع المالي لـ(سبيتا) وأخيه (سوفيليو) سيقومان بمثابة ضمان كافٍ، إذ أكد لي عدد كبير من معارفهما بأن مالي مضمون الى آخر حدٍ. بعد هذا إتفقنا على إستقدام السيد (پيير فرانشسكو برتولدي) مسجل عقود المركاتانزيا (Mercatanzia). فبادرت بتسليمه الوثيقة التي أدرج فيها (سبيتا) تفاصيل كلّ ما أقرّ به لي من غلّة معتقداً أنها ستُدرج في صلب العقد. إلا أن مسجل العقود هذا الذي كان مسؤولاً عن صياغة العقد إنشغل بتدوين الحدود الإثنين والعشرين التي عددها له سبيتا، فغفل كما أظن عن تثبيت كميات الغلة التي أقرّ لي بها البائع. وكنت من جهتي مركّزاً إنتباهي في عملي أثناء قيام المسجل بكتابة العقد حتى إني تمكنت من إنجاز جانب كبير من رأس نبتون أثناء كتابته التي إستغرقت عدة ساعات. بعد توقيع العقد، راح (سبيتا) يجاملني فيظهر لي من الودّ مايزيد عن المعقول. فقابلته بالمثل وأهداني جداءً وجبناً وديوكاً ولبناً خاثراً وأصنافاً من الفاكهة حتى أخجلني وأحرجني. وإزاء كرمه هذا كنت أخرجه من الفندق الذي ينزل فيه كلما إختلف الى فلورنسا وأستضيفه في منزلي هو وقريب أو قريبان له كانا يوافقانه في كثير من الأحيان.

ثم شرع وبغاية من الكياسة والمحبة يحضّني على زيارة المزرعة قائلاً انه لمن المؤسف أن لا أعتزم عملي الى مساعدي بضعة أيام والقيام بزيارة للمزرعة بعد مرور الأسابيع الكثيرة على شرائها. وأحدث هذا الرجاء والإلحاف المنطوي على أخبث النوايا تأثيره. فشددت الرحال في ساعةٍ من ساعات النحس وإستقبلني (سبيتا) في منزله بحفاوة وودّ يقصر عن إظهار مثلهما للدوق نفسه! وبذّته زوجته في الترحيب وحسن الإستقبال. ومرّ بنا زمن ونحن على هذه الحال من المودة والتعاطف الى أن أتمّا نسج خيوط مؤامرتهما ضدّي أعني هو وأخوه (سرفيليپو).

لم أهمل العمل الدائب في (نبتون) وقد تبينت سابقاً أني قمت بإبراز تقاسيم جسمه وتفاصيل أعضائه بأسلوب محكم جداً ومتميز لايعرفه أحد ولم يمارس من قبل. ومع يقيني بأن القَدَرَ حكم بأن لاتكون الرخامة من نصيبي للأسباب التي فصلتُها سابقاً، فقد إستهدفت الفراغ منه بسرعة وعرضه في الميدان حالاً إرضاء لرغبة في نفسي لا غير.

ذات يوم وكان يوم أربعاء يقع فيه عيدٌ إختياريّ[١٢١] شجعني الطقس الدافيء الجميل ومعاملة

(١٢١) هو عند الكاثوليك ليس بالعيد الرسمي، وإنما يوم مخصص لذكرى قديس أو حدث ديني وللمرء الخيار في أن يتخذه عطلة أو يشتغل فيه.

الوغدين البالغة في اللطف والمجاملة، على الخروج من منزلي الريفي في (ترسپيانو Trespiano). كنت قد أصبتُ وجبة غداء فاخرة، فلم أتأخر في طريقي الى (ڤيكيو) كثيراً بل بلغتها في أقل من ثلاث ساعات قبل حلول المغرب. فلقيني (سرفيليپو) عند مدخل البلد. ويبدو انه كان على علم سابق بمقدمي. غمرني بالمجاملات. وأخذني الى دار (سبيبيتا) حيث رحبت بي زوجه تلك الساقطة العاهر بكلّ حرارة ،فقدمت لها على سبيل الهدية قبعة من القش ظريفة جداً قالت أنها لم تر أجمل منها. ولم أجد (سبيبيتا) في الدار.

حلّ المساء فجيء بالعشاء وتناولناه معاً بإنسجام وإنشراح خاطر. وخصص لمبيتي مخدع ممتاز نمت فيه على فراشٍ في منتهى النظافة. وعومل خادمان كانا معي بعين المعاملة حسب مركزهما. وفي صباح اليوم التالي لقيت إثر إستيقاظي عين الحفاوة والإكرام كأمس. وتوجهت لمعاينة مزرعتي فوجدتها على خير مايرام. ودفع لي المقدار المقدّر من الحنطة والذرة. ثم إني قفلت راجعاً الى (ڤيكيو) وبعد عودتي قال لي القسّ (سرفيليپو):

– أرجو أن لا يستبدّ بك القلق أي بنڤنوتو! قد لاتجد كلّ شيء بالشكل الذي مُنّيتَ به؛ وفي هذه الحالة لاتزعج نفسك أو تقلق اذ سرعان ما ستجد الأمور في صالحك لأنك تتعامل مع أناس أمناء. وعليّ أن أخبرك بأننا طردنا الفلاح الأجير في المزرعة لأنه من أهل الفساد.

هذا الفلاح الذي يدعى (ماريانو روزيگلي). كثيراً ما كان ينبهني بعد طرده بقوله:

– سترى في النهاية أيّنا من أهل الفساد وحسبك أن لا تغفل عن مصالحك وكن يقظاً.

وفي أثناء تحذيره هذا كان يطلق ضحكات مكتومة فيها إنذار ويميل برأسه مشيراً كأنه يريد القول "إذهب الي هناك وستتبين الأمر بنفسك". فداخلني القلق من أقواله لكنّي لم أتوصل الى معرفة شيء مما كان سيقع لي.

على كلٍّ، بعد عودتي من المزرعة التي كانت على نحو ميلين من (ڤيكيو) بإتجاه جبال الألب، وجدت القسّ[١٢٢] في إنتظاري. فتلقاني بسحره المعتاد هاشاً باشاً وسرنا معاً الى المنزل لتناول الغداء. كانت وجبة خفيفة أكثر مما هي وجبة كاملة. وبعدها خرجت متجولاً في أنحاء (ڤيكيو) وكان السوق قد بدء يكتظ بمرتاديه ووجدت نفسي فجأة وأنا محطّ أنظارهم: الكلّ يتطلعون اليّ متفرسين كأنما يجدون شيئاً غريباً فيّ ومنهم بصورة خاصة شيخ صالح طاعن في السنّ، قضى شطراً كبيراً من حياته في (ڤيكيو) وإمرأته خبازة تخبز وتبيع. وكان يملك عقاراً زراعياً جيداً يبعد عن الموقع نحو ميل واحد لكنه قنع بالبقاء حيث هو. وكان مستأجراً داراً تعود لي في (ڤيكيو) تحولت ملكيته اليّ مع المزرعة التي كانت تدعى (حقل النافورة).

فبدأ يخاطبني:

– إني أشغل دارك وسأدفع لك الإيجار عند الإستحقاق. وإن إحتجت إليه قبل الأجل فأنا طوع أمرك وسأنقدك البدل. كل ما أريد قوله هو اني أكره أن يقوم سبب للخلاف بيني وبينك.

(١٢٢) يقصد سرفيليپو.

وفيم نحن في هذا الحديث، لاحظت انه كان يركز فيَّ نظراً حديداً.
فلم يسعني السكوت وقلت:
- اجبني ايها العزيز (جيوڤاني) لماذا تبحلق فيّ ولاتحوّل أنظارك عنيّ؟
أجاب الرجل الطيب:
- سأصارحك بكلّ سرور إن وعدتني وعد رجلٍ حر وهو ما أتوسمه فيك أن لا تدع أحداً يدري بأني القائل.
فقطعت له عهداً، فقال:
- ينبغي لي أن أخبرك بأن ذاك القسّ الجلف (سرفيليپو) راح قبل أيام ليست ببعيدة، يدور متبجحاً مفاخراً بذكاء وسعة حيلة أخيه (سبيتا)، كيف إنه باع مزرعته من شيخ مسنّ بيعاً محدداً بما بقي من حياة الشاري الذي لن تمتد به الحياة أكثر من سنة واحدة. إنك تورطت مع عيّارين محتالين فإحذر لنفسك. وإحرص على أن تعيش مايمكنك ولتكن عيناك مفتحتين، وهو ما لاغنى لك عنه. هذا ما أردت قوله ولن أطيل.

في أثناء تجوالي في السوق إلتقيت صدفة بـ(جيوڤانباتستا سانتيني Giovanbatista Sanini) فأخذنا القسّ لتناول الغداء معاً. وكما سبق لي القول كان الوقت قبل الغروب بأربع ساعات. وقد تناولنا وجبة عاجلة متقدمة على الموعد كي يتفق ذلك مع ترتيبي العودة الى (ترسپيانو) مساء ذلك اليوم. ولذا تمّ إعداد الوجبة بعجلة، وكانت زوج (سبيتا) تروح وتغدو وهي منشغلة بهذا وذاك يساعدها خادم يدعى (چچينو بوتي). وبعد إعداد الصلصة ونحن نهمّ بالجلوس قال القس وقد إرتسمت على وجهه الشرير إبتسامة نكراء:
- أرجو أن تتقبل إعتذاري لعدم إستطاعتي مشاركتك الطعام. فثمّ صفقة هامة لأخي (سبيتا) وعليّ أن أبرمها لأنه غير موجود وسأنوب عنه فيها.

وألحنا عليه جميعاً بالبقاء عبثاً، فقد أصرّ ثم إنصرف وشرعنا نأكل. بعد أن فرغنا من الصلصة وكانت في صحاف قُدمت لنا جميعاً. جاء دور اللحم المسلوق فقُدم لكلّ منا بقصعة على حدة. وهنا قال (سانتيني) الذي كان يجلس قبالتي:
- لقد خصّوك بإناء فخاري يختلف عن البقية؛ أنظر بأي شكل يحتفون بك ويكرمونك؟

قلت إني لم ألحظ هذا. ثم أشار عليّ بأن أدعو إمرأة (سبيتا) لمشاركتنا وكانت هي و(چچينو بوتي) يروحان ويغدوان بعجلة وبشكل غير عادي. أخيراً نزلت عند إصراري وجلست لمشاركتنا قائلة بلهجة الشاكي المتبرّم:
- إنكم لا تأكلون شيئاً. لعلكم لم تستسيغوا طبخي؟

فأسرعت أمتدح الطعام مثنى وثلاثاً مؤكداً لها بأني لم أذق أفخر منه. ولم آكل قبلاً بشهية كما أكلت الآن، وقد إستوفيت حظي منه ونلت كفايتي. ولم يخطر ببالي أن أسأل نفسي عما حدا بها الى مثل هذه اللجاجة والتأكيد على تناولي مزيداً من الطعام. عندما فرغنا كان الوقت يشير الى أقل من

ثلاث ساعات لموعد الليل. وكنت جدّ حريصٍ على الوصول الى (ترسپيانو) في تلك الليلة لأتمكن من إستئناف عملي في اللوجيا صباح اليوم الثاني. فودّعت الحاضرين وشكرت ربّة البيت وإنطلقت.

بعد أن قطعت ثلاثة أميال بدأت أشعر وكأن ناراً كاوية تحرق معدتي، وإنتابتني آلام شديدة حتى خلت المسافة الى (ترسپيانو) دهراً. وبعون الله بلغتها ليلاً وأنا أكاد أسقط إعياءً. آويت الى فراشي حالاً لكني لم أغمض عيناً واحدة حتى الصباح، والأنكى من هذا إن الإسهال الفظيع الذي إنتابني جعلني أشعر وكإن إستي تحترق. وحين إستدرت لأرى السبب وجدت الجزء الملاصق لها من ثيابي ملطخاً بالدم.

فطنت فوراً الى أني أكلت شيئاً ساماً. ورحت في فكري أقلّب الحوادث مراراً وتكراراً لعلّي أتوصل الى معرفة الشيء لذي تناولته. وتذكرت الصحاف والقصاع والأطباق الصغيرة المختلفة عن البقية التي خصّتني بها زوج (سبيبيتا). ثم تذكرت كيف أن القس الشرير شقيق (سبيبيتا) كاد يقتل نفسه من فرط الإحتفاء بي ورعايتي ثم أبى البقاء ومشاركتنا الطعام كما تذكرت أيضاً إعتذاره عن البقاء بحجة صفقة لأخيه (سبيبيتا) وقوله قبلاً لبعض الناس، إن أخاه هذا قد باع مزرعة من شيخ مسنّ لمدة تنتهي بأجله ولن يتعدّى سنة واحدة. وهو ما أسرّني به الرجل الطيب (جيوڤاني ساردللو). من هذا كله توصلت الى نتيجة واحدة. وهي إنهم وضعوا لي سبلمة[١٢٣] في قصعة الشوربا الصغيرة. وجعلوا مذاقها طيباً شهياً. أجل لاشكّ في ان السمّ هو سبلمة لأن هذا النوع يسبب عين الأعراض التي ظهرت فيّ. كان من عاداتي أن لا أتناول مع اللحم إلاّ القليل جداً من الحساء المتبّل أو المرق الكثير البهار مقتصراً على الملح. إلاّ أني تناولت ملعقتين صغيرتين من ذلك المرق لأني وجدته لذيذاً. بعدها رحت أذكر كيف ألحّت عليّ زوج (سبيبيتا) بمختلف الوسائل لأتناول المزيد منه. وعند ذلك أيقنت بأنهم دسّوا لي مقداراً من السبلمة في المرق.

مع شعور بثقل العلّة فقد صح عزمي على مواصلة العمل في اللوجيا ولكن وطأة المرض إشتدت بعد أيام قلائل فأرغمتني على ترك العمل وإلتزام الفراش. وما إن سمعت الدوقة بما حصل لي حتى أسرعت فأسندت العمل بالرخامة الى (بارتولوميو آمّاناتي) وأهدتها له. فأرسل يقول لي بأن أعمل الذي أريد بنموذجي، لأن الرخامة أصبحت في حيازته. أبلغني بهذه الرسالة السيد (.....) الذي يسكن في (ڤيا ديل Via del) وهو واحد من عشاق زوج (بارتولوميو آمّانتي). رجل مهذب كتوم ولذا كان أكثرهم حظوة عندها. و(آمّاناتي) يمنحه كلّ الفرص التي يريدها للوصال بها. وبإمكاني ان أقول الكثير في هذا، على إني لا أرغب في نهج سبيل أستاذه (باندنللو) الذي لم يكن يثبت على نقطة عند بحث موضوع معين. يكفيني القول اني أجبت السيد (.....) بأن هذا النبأ ليس مفاجأة لي، فقد كنت أتوقعه على الدوام. وعليه أن ينصح (بارتولوميو) عنيّ بأن يجتهد في عمله لكي يظهر إمتنانه من حسن حظه الذي اتحفه بهذه الفرصة العظيمة، وهو غير جدير بها.

(١٢٣) المركب الكيميائي (كلورور الزئبق المصعد) ويدعى بالسليماني. وهو سمّ قاتل إذا اخذ بكميات كافية، وهو من السموم المعروفة منذ القدم.

بقيت طريح الفراش وأنا في حالة من البؤس تجلّ عن الوصف. وإستدعيت الطبيب النطاسيّ (فرانشسكو دا مونتي ڤاركي Francesco da Monti Varchi) والجراحيّ (رافاييللو دي پيلليRaffaello de´ Pilli) أيضاً للإشراف على معالجتي. فقد أحرقت السبلمة امعائي وإستمرّ الإسهال دون إنقطاع. وأدرك (فرانشسكو) بأن السمّ قد عمل كلّ الضرر والتخريب الذي يقوي عليه ولم تكن كميته كافية للتغلب على جسمي المتين التركيب كما ظهر له. وفي يوم ما قال لي:

– اشكر الله. يا (بنڤنوتو) فقد نجوت من الموت. وعليك ان لاترتاب لحظة واحدة في اني كنت أعمل جهدي لشفائك. فبهذه الوسيلة نرد كيد الأوغاد الذين حاولوا إيذاءك الى نحورهم.

وعقّب (رافاييللو) على هذا بقوله:

– إن الشفاء الذي حققته هو أعجب وأصعب ما عرف من حالات مشابهة. لايخفاك يا بنڤنوتو ان ما ابتلعت من السبلمة هو ملء فم.

وهنا وافقه فرانشسكو بقوله:

– ربما كانت واحدة من تلك الديدان المعوية السامة.

قلت لهما إني لعلى يقين من هوية السمّ الذي دُسّ لي.

ثم لاذ جميعنا بالصمت. وإستمر الطبيبان يعالجاني مدة تربو على الستة أشهر ولم أستعد صحتي كاملة وأتوفر على أعمالي المعتادة إلا بعد إنقضاء عام وبعض عام.

في ذلك الوقت كان الدوق قد تهيأ لدخول (سيينا) ظافراً. وقد تقدمه (آمّاناتي) ببضعة أشهر لإقامة أقواس النصر. وتخلّف في اللوجيا ابن سفاح له. فقام هذا برفع بعض الأغطية التي كانت تخفي (نبتون) تمثالي وقد أحكمت تغطيته لأنه لم يبلغ حدّ الكمال. فراجعت الأمير (دون فرانشسكو)[١٢٤] ابن الدوق وكان شديد الميل اليّ وشكوت له الأمر. حكيت له كيف أزاحوا الغطاء عن تمثالي قبل تمامه ولوكان كاملاً ما إكترثتُ. فأتى بحركة او حركتين فيهما وعيد وتهديد ثم قال:

– بنڤنوتو! لاتزعج نفسك بهذا الأمر. إنهم يحفرون قبرهم بيدهم. لكني سأصدر الأوامر بإعادة غطائه إن شئت.

وأضاف سموّه الأفخم أشياء كثيرة في صالحي بمحضر من الأشراف. فأجبتُ إن رجائي من سموّه هو تزويدي بما يلزم من وسائل لإكماله له لأني أرغب في تقديمه هدية له مع النموذج الصغير. فأجاب انه يتقبل الهديتين بكلّ سرور وسيأمر بما أحتاج. نفخت فيّ هذه الإلتفاتة الصغيرة قوة جديدة بل انقذت حياتي في الواقع، فقد إنهدت قواي وأشرفت على التلف لكثرة ما ابتليت به من علل ولفرط ما لقيت من بلايا سقطت عليّ كلها دفعة واحدة. إن هذا التقدير البسيط اراحني ونفخ فيّ روحاً من العزم على المضي قدماً في عملي.

(١٢٤) في العام ١٥٦٤ تنازل الدوق كوزيمو عن أملاكه لإبنه هذا محتفظاً بحكم فلورنسا وحدها. ثم خلفه في الحكم بعد وفاته في العام ١٥٧٤. إلاّ أنه كان مجرد نائب لوالده في الزمن الذي ينوه به چلليني.

كملتْ سنة واحدة على شرائي منفعة حقل النافورة من (سبييتا) وكأن لم يكفه ما ألحق بي من أذى بدسّ السم لي وارتكابه بعض عمليات إختلاس، فقد اتضح لي ان المزرعة لاتغلّ نصف المقدار الذي تعهد لي به من الغلة. اني حائز فضلاً عن العقد الرسمي، وثيقة بخطّ يده تعهد فيها أمام شهود بأن يؤّمن لي الغلّة التي ذكرتها لي سابقاً. وبناء عليه راجعت أعضاء مجلس القضاء. وكان السيد (ألفونسو كويستللو Alfonso Quistello) في قيد الحياة وهو المستشار ويجلس مع سائر الأعضاء ومنهم (أڤيراردو سريستوري Averardo Serristori) و(فدريگودي ريچي Federigo de´Ricci) وغيرهما ممن لا أتذكر أسماءهم. وكان ثمّ فرد من أسرة (اليساندري Alessandri). كانوا جماعة من ذوي الشأن والمقام الرفيع.

بعد شرح قضيتي للحكام. قرروا بالإجماع الحكم على (سبييتا) بإعادة المبلغ الذي إستوفاه مني. بإستثناء (فدريگو دي ريچي) الذي كان يستخدم (سبييتا) في ذلك الوقت. وعندها قالوا لي جميعاً انهم آسفون لأن (فدريگو دي ريچي) يحول بينهم وبين إصدار حكم في القضية. وقال لي (أڤيراردو سريستوري) عين ماقاله الآخر. وابلغني انه وذاك الفرد من أسرة (اليسّاندري) قد أحدثا ضجة كبيرة حول المسألة وإحتجاّ بشدة. وبعد أن أرجأ (فدريگو) البتّ في القضية الى أن أنهى أعضاء مجلس القضاء فترة خدمتهم. لقيني (سريستوري) صباح يوم وهم خارجون من ميدان (الانونزيانا) فقال بصوت جهوري غير هيّاب أو مهتم بمن يسمعه:

- إن النفوذ الذي يمارسه (فدريگو دي ريچي) يفوق ما يمارسه سائرنا مجتمعاً. وهذا الذي أصابك بالدمار رغم أنوفنا.

لن أعلّق بشيء حول هذا. اذ ما سأقوله قد يعدّ قذفاً وطعناً بسلطة الحكومة العليا. وحسبي القول اني ظُلمت، وهُظم حقي بمسعى وارادة مواطن ثري، لأن الراعي الجلف (سبييتا) كان من خدامه ليس إلاّ.

كان الدوق في ليڤورنو Livorno[١٢٥]. فقصدته في زيارةٍ لأطلب منه إعفائي من الخدمة ليس إلاّ. فبعد أن إستعدت قوتي وصحتي وأدركت كم أنا مهمل لايُستفاد منيّ. خالجني الألم والحزن على ما لحق بفنّي ومواهبي من ضرر. قصدت ليڤورنو وأنا عازم على مقابلة الدوق. فرحّب بي بحرارة وأدب جمّ. وبقيت هناك أياماً عدةً أخرج فيها معه في نزهة على ظهور الخيل كلّ يوم. فكانت أحسن فرصة لقول كل ما أريد قوله. اذ اعتاد الدوق قطع مسافة أربعة أميال خارج (ليڤورنو) بإمتداد الساحل حيث كان يبني قلعةً صغيرة. ولم يكن يريد أن يُضايق بالكثير من الأتباع ولهذا إختصني لمنادمته ومبادلته الحديث. وفي ذات يوم وبعد أن إستشففت منه مودّة وميلاً غير عادي تعمدت الحديث حول (سبييتا) أي (پييرماريا دانتريگولي)، فقلت:

- مولاي! إني لأرغب في إطلاعك على القضية الغريبة التي ستوضح لك سبب تخلّفي عن إكمال

(١٢٥) مدينة على ساحل البحر تقع جنوب غرب فلورنسا وتبعد عنها زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً وهي (ليگهورن) الحالية.

نموذجي العزيز على قلبي (نبتون) الذي كنت أشتغل به في اللوجيا. عليّ أن أوضح لسموّك بأني كنت قد إبتعت مزرعة لمدى الحياة من سبييتا...

ثم أنهيت إليه بالتفاصيل كافةً. دون أن أشوبها بتزييف. ولما بلغت بالحكاية مرحلة السمّ. قلت: إذا كان سموّه يعدني من خدّامه المفيدين فعليه بدلاً من عقاب (سبييتا) وكلّ من دسّ لي السمّ- أن يجزل لهم العطاء لأن السمّ الذي لم يكن كافياً لقتلي، كان في الواقع بالمقدار الذي وضع لي كافياً لشفائي من داء اللزوجة المميت الذي تشكو منه معدتي وأمعائي منذ سنوات. والنتيجة فبدلاً من أن يكون حظي من الحياة ثلاث سنوات أو أربع على أكثر تقدير كان لتأثير دوائهم في جسمي من الفائدة مايجعلني أعتقد بأني كسبت أكثر من عشرين سنة. واضفت الى هذا قولي اني شكرت الله على ذلك بحرارة وشوق أضعاف مافعلت قبلاً.

وختمت الحكاية بالقول:

- صحيح جداً ما كنت أسمع الناس يرددون: إن الله يريد بنا الخير حين يبتلينا بالشرور.

أصغى اليّ الدوق لأكثر من ميلين في نزهتنا مرهفاً السمع ثم قال متعجباً:

- تباً لهم من أشرار!

ولم يزد شيئاً.

قلت أخيراً إني مدين لهم بالفضل. ثم إنتقل بنا الحديث الى مواضيع طلية أخرى. وإنتظرت يوماً مناسباً لغرضي وإتفق اني وجدته رائق المزاج، فطلبت منه أن يسرّحني من خدمته كيلا تضيع السنوات المتبقية من عمري بما لاطائل تحته ودون القيام بعمل ما. وأما ما تبقى من ثمن (پرسيوس) فلا بأس من أن يتم تسديده حينما يشاء سموّه. وقد خرجت عن حدودي في شكره مختاراً أجمل العبارات إلاّ أنه لم يردّ عليّ بكلمة واحدة ولكنه بدا شديد الغيظ.

وفي اليوم التالي أقبل عليّ السيد (بارتولوميو كونچينو Bartolomio Concino) وهو أحد كبار أمناء سرّ الدوق الرفيعي المقام. فقال لي بنبرة لاتخلو من وعيد:

- يقول الدوق: إن شئت الإستعفاء فسيقبل ذلك. وإن شئت أن تواصل الخدمة فسيوكل إليك أعمالاً عساك تكون قادراً على إنجازها.

أجبتُ إن رغبتي منحصرة في التفرغ الى عملٍ ما سيما ما يعهد اليّ به سموّه لأني أقدمه على أي إنسان آخر في العالم. وإني لمسرور في أن أعمل لسموه بدرهم واحد ما أنجزه لغيره بدوقية ذهب.

فأجاب يقول:

- إن كان شعورك هذا فالمعنى الذي أستخلصه منه أنه قبولٌ ولاحاجة الى المزيد من الكلام. عد الي فلورنسا لايساورك القلق مادام الدوق يريد بك خيراً.

وعلى هذا الأساس عدت الى فلورنسا.

ماكاد منزلي يحتويني حتى طرقني زائراً شخص يدعى (رافاييللوني سكيجيا Raffaellone Scheggia) وهو حائك للثياب المقصّبة بالذهب. قال لي:

- إني يا عزيزي (بنڤنوتو) لراغب في إصلاح ذات البين. بخصوص خلافك مع (پيير ماريا سبيتا).

أجبت لا أحد يمكنه إجراء الصلح بيننا غير السادة أعضاء مجلس القضاء. وفي الدورة الحالية لهذا المجلس لن يجد (سبيتا) صاحبك هذا، (فدريگو) آخر مستعد لقاء خروفين مُسمّنين ودون إعتبارٍ لشرفه أو خوف من ربه، ليروج لدعوى مخزية. فيصيب مقدسات العدالة بطعنة نجلاء وبهذا العار الجلل.

بعد أن قلت هذا وكثير غيره. واصل (رافاييللوني) مهمته قائلاً بلهجة المتملق المداهن: إن أكل القطاة بسلام أفضل من شنّ مثل هذه الحرب للفوز بديك سمين وإن كان الفوز به مضموناً. ثم زاد قائلاً إن إجراءات القضاء قد يطول أمدها، وسأتحسر على الوقت الضائع بها متمنياً لو صرفتها في انجاز عمل فنيّ بديع يكسبني المزيد من الشهرة، ويعود عليّ بالكثير من الربح.

أدركت إنه يقول الحق. وبدأت أُعير أذناً صاغية لأقواله. ولم يضع وقتاً فأجرى الصلح بيننا على الوجه التالي: يقوم (سبيتا) بإستئجار المزرعة منيّ ببدل سنوي قدره سبعون كراوناً ذهبياً لما تبقى من سنى حياتي. لكن ما كدنا نأتي الى توقيع العقد الذي قام بتنظيمه السيد (جيوڤاني ابن ماتيو أد ڤالگانو Giovani Mattio ad Valgano) حتى نوّه (سبيتا) بأن الطريقة التي نريد بها تصريف الأمور ستنجرّ الى أن ندفع أكبر مقدار من الضريبة ومع العلم انه لن يتراجع عن الإتفاق فمن المستحسن ان نجعل الإيجار محدداً بخمس سنين متجددة. وإنه سيحافظ على تعهده ويفي به دون اللجوء الى رفع الدعاوى مرّة أخرى. ووعده اخوه القسّ المحتال بعين الشيء. وعلى هذا تمّ إبرام العقد لمدة خمس سنين.

كنت أريد أن أهمل الكلام عن هذه العملية الشائنة الى حين وأتحدث عن أمور أخرى، غير إني مضطر لتدوين ما حصل بعد ختام السنوات الخمس المتفق عليها. بعد ختام المدة بدا هذان النذلان مترددين في المحافظة على الوعد الذي قطعاه. وفي الواقع أرادا إعادة المزرعة اليّ وإقالة الإيجار. فما كان منيّ إلاّ أن أخذت أجأر بالشكوى والإحتجاج، فلوحا لي بالعقد فصرت فاقد الحول أمام نكولهما واسقط في يدي. وبإدراكي قلة حيلتي هددتهما بالدوق وقلت انه لن يتسامح بمثل هذا السلوك الخياني اللإنساني إذ يحصل في مدينته. فأرعبهما ذلك بحيث دفعهما الى إرسال (رافاييللوني) الذي تحقق بمسعاه الإتفاق الأول. كانا قد أبديا عجزهما عن دفع مبلغ سبعين كراوناً كما فعلا طوال السنوات الخمس المنصرمة. فأجبت بأني لن أرضى بأقل. فجاءني (رافاييللوني) هذا قائلاً:

- عزيزي (بنڤنوتو). لاشك أنت مدرك اني اقف الى جانبك، وهما الآن يضعان كلّ شيء في يدي.

ثم انه اطلعني على مقترحاتهما المكتوبة. وبجهل مني لحقيقة كونه من أقرب أقربائهما فكرت بألاّ داعي للريبة وفوّضت أمري اليه تماماً. ثم جاءني يوماً- وكان ذلك بعد الغروب بنصف ساعة في شهر آب. وأغرقني بكلامه المعسول وأرغمني على كتابة عقد فوري مدركاً بأن الحيلة التي حبكها لاتنطلي إن تأجلت القضية الى اليوم التالي. وقضى الإتفاق أن يقوما بدفع خمس وستين كراوناً إيجاراً سنوياً على قسطين لما تبقى من عمري. وقد إعترضت بشدّة وصممت على الرجوع عن قبولي العقد. فأشار

(رافاييللو) الى توقيعي، وأقنع الجميع بأني الجانب المعتدي. وإحتجّ بأنه ما توسط في القضية وحسمها إلا متوخياً مصلحتي وإنه أحرص الناس عليها. ولم يكن مسجل العقود أو الآخرون يدرون بأنه قريب لهما فقد لامني الجميع وعذلوني. فلم يسعني إلا الرضوخ والتسليم دون تلكؤ. على أني سأبذل جهدي لأعيش أطول عمرٍ ممكن!

ثم إني إرتكبت غلطة أخرى في السنة التالية (شهر كانون الأول ١٥٦٦) فقد ابتعت منهما ايضاً واقصد (سبيبيتا) واخاه نصف حقل (بوجيو) بمبلغ مائتي كراون وهو ملاصق لحقل النافورة. وبعد أن دفعت المبلغ نقداً أجّرته لهما لمدة ثلاث سنين عند إنقضائها يعود لي. قمت بهذا بدافع حسن النية ومصلحة الطرفين. وقد يكون مني شذوذاً عن الموضوع لو أوردت تفاصيل الحيل والنذالات التي إرتكبها هذان الشخصان بحقي. فالله اللّه منهما! وحسبي هو ونعم الوكيل، واليه اشكو لأنّه بسط عليّ حمايته من أولئك الذين أرادوا بي شراً.

فرغت من صليبي الرخامي وقررت أن أقيمه مرتفعاً عن الأرض بضعة أقدام عند وضعه في محله. اذ سيبدو اكثر مهابةً وجلالاً للناظر وإن كان يبدو وهو مستقرّ على الأرض بديعاً رائعاً. فتأثيره تضاعف بعد رفعه وكان سروري به لايُحدّ. وعرضته لكلّ من يرغب في مشاهدته. فسمع به الدوق والدوقة وفوجئت بزيارتهما بعد عودتهما من (پيزا) إذ أقبلا على غير إخطار يصحبهما حشد من النبلاء ورجال البلاط، تحدوهما الرغبة في مشاهدة الصليب لا غير. كان إعجاب سموّها به عظيماً وأصعداني بمديحهما الى السماوات العلى وحذا حذوهما النبلاء والأشراف المرافقون.

بعد أن وضح لي إعجابهما طفقت أشكرهما بأرقّ العبارات قائلاً إنهما رفعا عن كاهلي عبء رخامة (نبتون) اذ كان خلاصي منها العامل الرئيس لإنجازي مثل هذا العمل الذي لم يسبقني اليه أحد قط. ومع إنه لم يكلفني جهداً خارقاً فإنه في إعتقادي يسوى العناء الذي تكبّدته فيه، لاسيما بعد أن حظي بإعجاب سموّهما. ثم إستتليت: وبما اني لا أرى من هو أجدر منهما به فإني أقدمه هديةً لسموّهما المعظمين ببالغ السرور. على إني رجوت منهما قبل الإنصراف أن يتكرما بزيارة الطابق الأرضي من منزلي. فنهضا في الحال وبكلّ لطف تركا المصنع ودخلا ليشاهدا النموذج الصغير الذي عملته لـ(نبتون) مع (النافورة) وكان مفجأة للدوقة التي لم تره من قبل، فقد أثّر فيهما تأثيراً عظيماً بحيث أطلقت فجأة صرخة إعجاب ودهشة. ثم إلتفتت الى الدوق وقالت:

– ما تصورت قطّ بحياتي أن أرى أحداً من عشرة من هذا الجمال.

وجواباً على هذا قال الدوق:

– ألم أقل لك؟

وردد هذه العبارة عدة مرات.

وتجاذبا أطراف الحديث ملياً وكله إطراء وثناء عليّ. ثم إستأذنتني الدوقة وغمرتني بمديح يتضمن الإعتذار أو يجري مجراه وكانت تكلمني وكأنها تطلب مني الصفح وبعدها قالت انها ستوصي لي من

المقلع برخامة مناسبة لأقوم بالعمل. فقلت رداً على عبارتها اللطيفة. لو أن سموّها زودتني بالوسائل وبما أحتاج فإني على أتم الإستعداد والرغبة للنهوض بمثل هذا التكليف حباً بهما وولاءً لهما.

فأجاب الدوق في الحال:

- ثق يا بنڤنوتو بأنك ستُزوّد بكلّ ماتريده. فضلاً عن ان ما سأعطيك دون سؤال منك سيكون أكثر بكثير وأنفس بما لايُقاس.

بهذه العبارات الساحرة انصرفا وتركاني سعيداً راضياً.

مرت عدة أسابيع دون أن أمرّ على الخاطر. ولم يخطُ أحد خطوة واحدة نحوي فتملّكني اليأس. وفي تلك الفترة من الزمن أوفدت ملكة فرنسا[١٢٦] السيد (باچيو دل بيني Baccio del Bene) الى دوقنا بطلب قرض مستعجل. فقام الدوق بإرساله بكلّ طيبة خاطر كما قيل. ولما كانت تربطني بالسيد (باچيو) صداقة متينة العرى فقد غمرتنا السعادة عندما إلتقينا في فلورنسا ووصف لي الرعاية التي شمله بها سموّه والعطف الذي أبداه. وفيما نحن نتجاذب أطراف الحديث سألني عما إذا كنت أشتغل الآن في عمل هام؟

فلم يسعني إلا أن أحدثه بحكاية تمثال (نبتون) الكبير ونافورته والضرر الكبير الذي أصابني من الدوقة. فقال نيابة عن جلالة الملكة انها مهتمة جداً بإكمال ضريح زوجها الملك هنري[١٢٧]. وإن (دانييللو دا ڤولترا Daniello da Valterra) كان قد كُلّف بصبّ الحصان البرونزي الكبير. إلا أن الوقت الذي كان قد حدده لنفسه، إنقضى دون قيامه بالعمل كما إن هناك نقشاً وتهاويل مهمة جداً للضريح. فإن وجدت في نفسي الرغبة في العودة الى فرنسا فإن الملكة ستقدم لي كلّ ما أطلب شريطة أن أتفرغ لخدمتها.

فرجوت السيد باچيو أن يتوسط لديّ عند الدوق ليمنحني الأذن بالعودة الى فرنسا. فقال (باچيو) مستبشراً وكأن الموضوع قد بُتَّ فيه:

- إذن فسنعود معاً!

وأورد ذكري أمام الدوق في اليوم التالي وقال إن كان الدوق راغباً فإن الملكة ستفيد من خدماتي. فأسرع الدوق يجيب:

- مازال بنڤنوتو ذلك الفنان القدير الذي تعرفه الدنيا إلاّ أنه تقاعد ولم يعد يشتغل.

وإنتقل الحديث بهما الى شؤون أخرى.

في اليوم التالي قصدت السيد (باچيو) فأطلعني على مادار بينه وبين الدوق حولي، فلم اقو على

(١٢٦) هي كاترين دي مديتشي (١٥١٩-١٥٨٩) ابنة لورنزو الثاني دوق فلورنسا وزوج هنري الثاني. وأمّ الملوك الثلاثة الذين تعاقبوا على عرش فرنسا (فرانسوا الثاني، شارل التاسع، هنري الثالث).

(١٢٧) هنري الثاني ملك فرنسا (١٥١٩-١٥٥٩). تولى العرش بعد وفاة ابيه فرانسوا الأول في ١٥٤٧. وتزوج كاترين دي مديتشي في ١٥٣٣.

ضبط نفسي من فرط الإنفعال وصرخت:

- بعد أن أبى سموّه أن يكلّفني بعمل وأبقاني عاطلاً. وبعد أن قمت بمبادرة شخصية مني بإنجاز عمل من أصعب أعمال النحت في أي زمان ومكان وبتكاليف زادت على مائتي كراون دفعتها من جيبي الذي يكاد يكون خالياً. أي شيء لا أقوى على إنجازه لو أناط بي سموّه عملاً؟ ألا دعني أصارحك القول: لقد أُسيئت معاملتي الى أبعد حدّ.

هذا الصديق نقل أقوالي الي الدوق فأجاب سموّه أنه كان في الواقع يمزح وإنه يريده لنفسه. والنتيجة؟ خامرتني فكرة النزوح عدة مرات... وتخلت ملكة فرنسا عن طلبي خشية إغضاب الدوق. وبقيت هكذا والبؤس يكتنفني من كلّ جانب.

في ذلك الزمن توجه الدوق الى (پيزا) ترافقه حاشيته كلها مع أولاده بإستثناء الأمير[١٢٨] الذي كان وقتئذ في إسپانيا. وكان طريقهم يمرّ خلال مستنقعات (سيينا) ومنها الى (پيزا). وأثرت في صحة الكردينال[١٢٩] سموم الهواء الفاسد قبل الآخرين، فركبته حمّى خبيثة وبعد أيام وجيزة اوردته حتفه. كان الكردينال عند الدوق كعينه اليمنى. كان شاباً وسيماً عالي الخلق والذكاء وموته لاشك خسارة عظيمة.

إنتظرت بضعة أيام لتجف الدموع على الراحل بحسب تقديري. ثم إنطلقت الى پيزا.

((إنتهت المذكرات))

(١٢٨) أي ولي عهد الدوق.

(١٢٩) الكردينال جيوڤاني دي مديتشي ابن الدوق الثاني. توفي في روزينيانو Rosingnano في تشرين الثاني ١٥٦٢.